المحاضرة الرابعة

(انتشار المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس)

صار واضحا في اوائل القرن الرابع انه على رغم من سن اجراءات الحكومة الكنيسة المسيحية مجال نشاطها طيلة القرن المذكور في كل جزء من اجزاء الامبراطورية ونجحت في اقامة مؤسسات ثابتة كما ارست لها قواعد راسخة تتمثل في النظام الكهنوتي والبابا والاساقفة .

وعندما انهارت السلطة الرومانية نهائيا في الغرب في القرن الخامس كانت الكنيسة بتنظيماتها تمتلك القدرة على البقاء ، بل انها كانت مهيأة لتمارس سلطتها ونفوذها على المجتمع الاوربي ولتخلف الامبراطورية الرومانية كهيئة متمدنة مهمة في اوربا .

ولم تنجح الكنيسة الكاثوليكية في تطوير الكنيسة فحسب ، بل انها توسعت جغرافيا متخطية حدود الامبراطورية الرومانية القديمة. وعندما فتح السكون بريطانيا كادت المسيحية ان تدحر فيها ، بل كادت العزلة تفرض على الجزر البريطانية برمتها. ولكن القديس باتريك الذي قضى ٦ سنوات في ارلندة اثناء شبابه ، ثم صار راهبا في بلاد المغال . سنة ٤٦١ الى ارلندة ليقوم بتبشير آسرية السابقين . وكان من دواعي سعادته ان يرى قبل وفاته غالبية الأرلنديين وقد اهتدوا إلى المسيحية. بل قام الارلنديون انفسهم بدور تبشري فعال.

وعبر المبشرون الارلنديون بقيادة سنت كولومبا (٥١٢ – ٥٩٧) المياه الى الشاطئ الشمالي لا نكلترا حيث وجدوا شعبا يتكلم لغة قريبة من اللغة الكلتية . ولما كان الاسم اللاتيني للارلندي هو سكوتا (Scota) فقد اطلق هذا الاسم على الجزء الشمالي من بريطانيا فعرف يسكوتلاند (Scotland) وعبر مبشرون ارلنديون آخرون البحر الى (برتاني) الكلتية حيث توغلوا في مملكة الفرنجة التي كانت حتى ذلك الوقت وثنية ونشروا المسيحية هناك. وفي اواخر القرن السادس (٥٩٧) ارسل البابا غريغوري الراهب او غسطين لهداية السكسون في جنوب انكلترا . وقد حقق هذا نجاحا منقطع النظير. وقام مبشر سكسوني هو ونفرد الذي عرف فيما بعد باسم بونيفاس بتأسيس كنيسة في الاقسام الشرقية لمملكة الفرنجة . ويعتبر معظم الالمان حتى ايامنا هذه القديس بونيفاس قد يسهم القومي. وفي الشرق قام القديسان الاخوان مثيديوس وسيرل بنشاط كبير وحققا نجاحا متميزا في هداية الشعوب السلافية. وحيثما حلت الكنيسة فان اراءها الدينية اثرت في جوانب الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وفي الوقت نفسه كانت سلطة الكنيسة في كل مكان تحددها الاوضاع السائدة فيه ففي الشرق حيث وجود حكومة قوية جعل السلطة والسيادة بيد الحكومة الامبراطورية وجعل الكنيسة خاضعة لها ، في حين ان فقدان مثل هذه السلطة في الغرب جعل سلطة الكنيسة هي العليا واضفى على الكنيسة من المهابة والمنزلة الرفيعة مالم يتوفر لنظيرتها الشرقية.

الهرطقة:

تعرضت الكنيسة المسيحية الى عديد من حركات الانشقاق منذ فجر تاريخها والمقصود بالهرطقة البدعة ، او الخروج على العقيدة المعترف بها من قبل الكنيسة او الخروج على جزء منها . فالهرطقة انشقاق وخلاف روحي وثقافي ليس له صلة بالقضايا الاخلاقية او بالمعاصي مهما كانت هذه كبيرة . وعندما يكون عدد الخارجين على العقيدة كبيرا وحركتهم واسعة يتطلب الأمر ردا قويا وشاملا من الكنيسة . وكثيرا ما ادت مقاومة الحركات الهرطقية الى تقوية الكنيسة وتعزيز مكانتها واغلب الحركات الهرطقية قادت الكنيسة الكاثوليكية الى امرين هامين ، أولهما : اعطاء تعريف رسمي دقيق ومحدد للعقيدة المختلف عليها ، وثانيهما : اتخاذ اجراءات قمعية او اقناعية تجاه الهراطقة.

وظهرت معظم الحركات الهوطقية خلال القرون الأولى من تاريخ المسيحية حول امور تتعلق بعقيدة الثالوث . فهذه نقطة يكتنفها من غير شك الغموض وهي صعبة الفهم والتفسير فكان هناك سؤال دائم حول طبيعة وشخصية السيد المسيح وعلاقته بالاب. ولعل اريوس (Arius) هو اقدم الهراطقة ومنه اشتقت الأريوسية التي ظهرت عام ٣٢٣ . واريوس هذا كان من الاسكندرية . وقد اثار هذا الجدل : اذا كان المسيح هو ابن الله فهو لا بد ان يكون اصغر منه واحدث ، وعلى هذا فهو اذن اقل منه شأنا . ان من صفات الله الازلية تعني ان لا بداية هناك ولا نهاية . ولكن المسيح غير ازلي لان له بداية . لذا فهو ليس اله بالمعنى التام. لقد استنكر اسقف الاسكندرية هذه الاراء وصدرت على اربوس عقوبة التحريم . واحدثت افكاره بلبلة كبيرة وشقت المسيحيين على انفسهم الامر الذي دفع بالامبراطور قسطنطين الكبير الى عقد نيقية عام ٣٢٥ . وقد حضره الاساقفة من مختلف انحاء العالم المسيحي . وفي مجمع نيقية هذا حددت و عرفت بدقة ازلية السيد المسيح ووحدته الكاملة بالاب. وبقيت الاريوسية تقاوم . ولكن العقيدة الكاثوليكية حققت النصر اخيرا بمساندة الحكومة الرومانية لها .

ونجحت الاريوسية في تحقيق انتصار في مجال اخر ، فقد قام المبشرون الاريوسيون بنشر هذه الديانة بين القبائل الجرمانية الأمر الذي سيكون له نتائج مهمة كما يتضح ذلك في دروسنا القادمة.

وجوبهت الكنيسة الكاثوليكية بهرطقة اخرى قام بها المنوفستيون القائلون بوجود طبيعة واحدة للسيد المسيح . وقد استنكر مجمع خلقدونيا (عام ٤٥١) هذا القول ، واكد تعريفه وتحديده السابق لشخصية السيد المسيح ولطبيعته. وقد نجحت المنوفستية في نشر تعاليمها في الشرق وصار لها انصار كثيرون في مصر وسوريا وفلسطين الامر الذي سبب كثيرا من المتاعب والمشكلات للاباطرة الشرقيين.